

لمحة عامة

بلغت كتابة القصة غايتها فى فن مارسيل بروست الفرنسى عندما فرغ من وضع كتابه « البحث عن الزمن المفقود » ، « A La recherche du temps perdu » لأنه تعمق فى أغوار علم النفس ، وزحف على العقل الباطن حتى استولى على حصونه وقلاعته وبروجه المظلمه الغامضة ، فأنطقها ورفع الأمتعة السبعة عن أسرار الحياة ، وغاص فى سبيل تلك المغامرة بحور الأدب والفن واللغة ، وأخرج ما استطاع من كنوز الدرارى الدفينة ، وعاد الى عالم الكتابة الأرضى كما يعود الغواص من قيعان المحيط ، محملاً بالآلىء ، وقد أشرف على الهلاك .

ولم يكن القراء فى القارات الخمس ، ولا النقاد فى حواضر أوروبا وأمريكا يدركون ، ولا المنجمون يدرون أو يتكهنون بأن نجماً آخر قد أشرق نوره فى أفق الأدب واللغة والفن ، وأن هذا النجم المشرق من غرب أوروبا - وهو ليد أمة مظلومة مغلوبه على أمرها

مهيضة الجناح ، ذليلة الجانب ضربت عليها ذلة المسكنة ، وهوان الاستعمار والاستعباد - سيطلع فى الأفق الأوروى ، ويصبح كوكباً لامعاً بل قمرأ منيراً بل شمسأ تخطف بنورها الأبصار ، وسوف يفوق بريقه والتماعه وإشعاعه كل من سبقوه فى الأدب والفن واللغة ، ولاسيما فى أدب القصة . وأن مارسيل بروست وغيره قد أمسوا بعده عيالاً عليه ، وأطفالا بالنسبه له ، إنه مارذ جبار وعملاق وجبل شامخ وبحر عميق ، بل محيط المحيطات فى الأدب والفن واللغة وفهم الحياة ، وتصويرها ونقدتها وتحليلها .

هذا هو جيمس جويس مؤلف كتاب عولس ، المتوفى سنة ١٩٤١ بعد حياة كلها تعذيب وتشريد ومطاردة وكفاح وألم واضطهاد فى وطنه وفى سائر الأوطان التى حط فيها رحاله . ومايزال جيمس جويس مجهولاً فى الغرب والشرق إلا من القلة النادرة الذين يطيقون قراءة كتبه وأدبه وأسلوبه ويصبرون عليها . واعلمُ أرشدك الله وإيانا أن كل ما تقرأه مكتوباً عنه عند العرب والافرنج ، فى المجلات والصحف والكتب ، هو تحسيس ومحاولة ونقل وتقليد واصطناع ومفاخرة ، ماعدا الذى كتبه القاضى جون ولزى الأمريكى الذى أصدر حكمه فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢

بإباحة طبع كتابه ونشره بعد مصادرتة ومنعه وإحراقه من سنة ١٩٢١ الى صدور هذا الحكم الحاسم العادل قبل وفاة المؤلف بسبع سنين ، لأن القاضى النابه اضطر لقراءة الكتاب من أوله لآخره مرتين ليصدر الحكم العادل فى حق الكتاب وصاحبه .

فما أقل عقل الذين يحاولون أن يفهموا جيمس جويس دون أن يقرأوا كتابه ، وما أشد غفلة الذين يكتفون بقراءة نبذة لقيطة أو مقالة مفتعلة ، يحمل كاتبها على الرجل بتهمة المخالفة للدين والأخلاق الفاضلة ، أو الطعن فى دولة قوية بينها وبين أمته ثار .

لهؤلاء نقول ليس فى سبيل الاطلاع على الأدب الصحيح وإدراكه على حقيقته معجزات ولا كرامات ، وليس طريق الدرس والفهم لهذه الأعجوبة الأدبية الفذة مفروشاً بالورد ، بل لابد من التعب والسهر ومداومة الدرس ، حتى يأتى القارئ الناقد على آخر كتاب عولس وحتى يفهمه ويهضمه ، فإنما لذة الأكل تكون بعد تحريق الأيدى والانتظار الطويل والتعب العنيف .

وبعد فهذا كتاب واحد لا عدة كتب ، والعناد الذى يبذله الراغب فى درسه المشسى الى فنه لن يتكرر ، والتعب الذى يقضيه لن يذوقه مرتين ، ولكن الشبع ، ولكن الطعم ولكن المسرة التى

تحوزها بعد قراءته لاتزول من نفسك وعقلك أبداً .

وحرام على من يعيش فى هذا الزمان ويعرف اللغة الانجليزية معرفة حسنة أن يحرم نفسه من قراءة هذا الكتاب ، بل إن هذا الكتاب خليق بأن يتعلم الرجل فى سبيل قراءته تلك اللغة إن كان يجهلها ، فإنه كفيف بحسن جزائه على كل ما أنفق من جهد ومال وأيام فى سبيل الوصول اليه .

إن هذا الكتاب متحف بل كنز بل مدينة ، بل كوكب ، وإن وصف المتحف والكنز والمدينة والكوكب لايفنى عن رؤيتها قطعة قطعة ومكاناً مكاناً ، وركناً ركنأ ، وصفاً صفاً ، بل شعاعاً شعاعاً فإن فى دقائق المخلوقات ولا سيما مخلوقات العقل العبقري وحيأ لا يصفه القلم واللسان ، وقد تفتن العالم قطعة فخار أو مرمر ولا أقول درة فى تاج فيجن بها ويعمى عما فى المتحف أو الكنز أو التاج أو المدينة ، كما حدث فى متحف يونانى رومانى زرته عرضاً فرأيت فيه رأس فتاة مجدوعة الأنف- وأسفاه- مغمضة العينين ، ولكننى لا أنسى ما حييت الجمال الإلهى الذى يشع من فتنتها ، وهكذا كانت حالى فى الكتب والمتاحف والمدن ، بل فى هذا العالم الأرضى أطوف ما أطوف وأقرأ ما أقرأ طوال الايام والليالى ، فيقع

نظري على شيء واحد فأهيم به وأحلم كما همت بالجوكوندا وتمثال الزهرة في باريس ووادى الأرنو في فلورنس ، ومحراب المسجد الأموي في دمشق وهكذا . .

هذا الكاتب جيمس جويس الأيرلندي أصلاً الكاثوليكي ديناً ، العالمي موطناً، الهارب من لكاعة مواطنيه ، الفار من ظلم حاكميه ، الثائر على خمول والديه ، الناقم على الناشرين والطباعين والوراقين والسراقين الذين استغلوه ، المحتقر لناقديه والحاقدين عليه ، أحببته قبل أن أقرأ كتابه ، فلما قرأته في مدى أربع سنوات على شاطئ البحر ، وفي سكون الليل وفي قيظ النهار ، وفي وحدة غرفتي ، استغنيت به عن كل كتاب في الأدب والفن فأحببت مؤلفه مائة مرة .

إنه أحد ثلاثة أو أربعة في تاريخ الأدب الإنجليزي ، وهو بلا ريب فذ من أفاذ العالم في كتابين ، الأول عولس الذي لم يكتب مثله غربي ، كما قصر عنه الكثيرون من نوابغ العالم أمثال شكسبير وجوته وملتون ، لأنهم لا يملكون زمام لغتهم كما ملكه هو ، أما الثاني فهو « حياة الفنان فتى » وهو ليس موضوع بحثي .

ومن درس الكتاب الأول (عولس) يقول تارة مع تورك Turk

فى كتابه على العبقريه « النبوغ موهبة ربانية ، يعطيها الله من يشاء » .

ويقول طوراً مع بوفون « ليس النبوغ إلا صبراً طويلاً » .
ويقول العاجز كاتب هذه الأسطر « النبوغ موهبة إلهية يهب الله صاحبها الصبر الطويل حتى ينجز عمله ويشعر بلذة العمل أثنائها » .

وقد قال جويس عبارة عجيبة « على من يريد أن يفهمنى أن يقف حياته على دراسة كتبى » ، فلما قرأتها قبل أن أقرأ كتاب عولس ، داخلنى ريب فى غروره وانخداعه بنفسه وامتلأته بذاته وكبريائه ، ولكنى بعد أن قرأت تمنيت أن أعطى من الأعمار ما تمناه المتنبى لسيف الدولة ، فأدرس جويس عن أهل مصر جميعاً ، لأعرفهم بأخيهم وابن عمهم هذا .

لم يكن فى اللغة الانجليزية أو غيرها من آداب أوروبا أدب حى كما نفهمه اليوم ، حتى ظهر كتاب عولس وإننى لأضحك ساخراً كما ضحك القاضى الأمريكى (الذى مايزال فى نظرى العمدة والثقة الوحيد ، لأنه قرأ الكتاب مرتين مرغماً مضطراً بحكم صنعه وواجبه وضميره) ، أضحك ممن يعد « عولس » كتاباً بديناً ،

فيؤاخذ الرجل على حرية فكره ، ومواجهة الحقيقة ، والجهر بكل مايقوله الناس ويشغل بالهم ، فى صحوهم ونومهم .

فلتقرأوا عولس قراءة فنان إن أردتم تقديره وتعظيم مؤلفه ، ودع سواك يقرأه قراءة البلهاء المنافقين ، إن أردت أن تصبّ على رأسه جام غضبك وغضب المرائين والمتنطعين والخشب المسندة .
فسيان عند جويس حياً وميتاً وعند المعجبين به ممن فهموه هذا أو ذاك ، ولكن أهل الفطنة والنوق السليم ، يضحكون منك إن رأيت فى النظر الى تمثال فينوس (الزهرة) الذى ذكرته معصية تلقى بك فى سقر بينا أرى ويرى غيرى فى النظر الى الحقيقة العارية ثواباً وتمجيداً لله وللعبقرية ، وتسبيحاً وحمداً على نعمة الخلق والتصوير تدخلنى الجنة .

والجمال والفن الرفيع والأدب الحى عندى رزق كريم ونعم ومنح ربانية سواء أكانت وثنية أم مسيحية أو إسلامية .

ثم إنى أضحك ساخراً ممن يعتبر عولس كتاباً فيه إلحاد وهرطقة ، لأن جويس خلع نير العبودية الجيزويتية ، لا العقيدة المسيحية الصحيحة ، فصرح فى نبذ يسيرة نادرة عن الصراع الذى نشب فى سريرته بين الشخصية الفنية المتحررة والشخصية

الدينية المكبوتة ، وفرحه بالانتصار على القوة الفاشمة ، والمؤامرة العظيمة الغادرة التي كان يدبرها عليه فى صباه عميد كلية بلغدير الجيزويتية الايرلندية ، لانتهاج روحه واستخلاصها لخدمة الكهنوت .

فهذا المظهر الإلحادى ، الذى بدا فى بعض نبذ عولس لا يدل على ردة جويس ، ولكن يدل على نضجه الروحى ، وكفاحه فى طريق الدين الصحيح من ناحية وفى طريق الفن من ناحية أخرى .

وإنى لتعرونى هزة ، كلما فكرت فى إمكان نجاح مؤامرة بلغدير الكهنوتية ، وضياح ذلك الفنان النابغ على الدنيا ، إذا تغلب الدين على الفن فى شخصية جويس ، وكان هذا ممكناً بل مرجحاً لولا أن عميد الكلية كان متعصباً ومتشدداً لا يفهم الطفولة ، ولا يعذر النفس الناشئة فشاء القدر أن يكتب جويس وهو تلميذ حدث موضوع إنشاء ، فيه بعض التحرر والانطلاق ، فاتهمه العميد بالكفر وألزمه «بالاعتراف» بكفره ، ثم هدده بالويل والثبور ووصف له فى خطبة منبرية كنانسية أهوال الجحيم التى تنتظره وصفاً تقشعر له أبدان الكبار فضلا عن الأطفال !؟ . فتقضى هذه الخطبة الرنانة على مابقى فى نفس الفنان الصغير والأديب الناشئ من

حب الدين والإيمان بالعدراء والمسيح والثقة بالإنجيل ، وهو دين
رحمة وحنان وعطف ومودة ، فيعصى جويس ويستكبر ويصيح
صيحة باللاتينية حين أبى أن يخدم العرش الإلهى « لن أخدم لن
أخدم » « " Non servian Non servian " .

فقضى الكاهن بسيف التعصب الأعمى على روح الدين
وذبحها ، ولطخ سيف الشدة بدمها ، فوقع على رأسه ، ونجا الفن
الرفيع والأدب العالمى فى نفس العبقرى جيمس ، فانطلقت تلك
النفس من قيودها وتحرر العقل من نير الظلم الغاشم ، والتمس
الشاب سبيل العلم والأدب فى الجامعة الحرة بعد أن تمرد وثار على
ثقافة أمته ، وعلى نهضة إحياء اللغة الأيرلندية التى قام بها رجال
فضلاء من مواطنيه يكبرونه سناً واختباراً وتجارب ، وسعى الى
الفرار من الدين والثقافة الأيرلندية والوطن الأيرلندى المكبل بقيود
الاستعمار الانجليزى ، سعى الى الفرار ما استطاع سبيلا ،
والتمس النجاة فى آفاق أرحب وأخصب وأنور وأبهى فى القارة
الأوروبية ، فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا مقر الجمال والأدب
الصحيح والفنون الرفيعة ، ورشف من مناهلها ثقافة لاتحد بلغة ولا
وطن ولا جيل ، وأقبل على التعليم ففشل فى طلب الطب ، ثم أقبل

على اللغات فاتقن عشرأ منها قديمة وحديثة وأقدم على الحضارات
والآداب العالمية البائدة والحية والمعاصرة ، والشرقية والغربية ،
فاستساغها وتمثل ثقافتها وهضمها .

وهذه الصورة الباهرة تجدها فى كتابه الأول « صورة الفنان

شابا » The pirtrait of the artist as a young man .

فهذه الثورة لم تذهب بإيمان جويس ، وإن ظهرت بعض
آثارها فى كتابه عولس ، فكان يغضب على من يمتهن الدين فى
حضرتة ، وعلى من يعيب اللغة الأيرلندية أو الجنس السلتي بمسمع
منه ، ويقى نادماً طوال حياته لأنه عصى مشيئة أمه المحتضرة ،
عندما طلبت إليه أن يركع بجوار فراش موتها ، ويصلى الى الله من
أجلها فأبى ، ولكنه شعر بعد ذلك أنه أخطأ فى حقها ، وفى حق
حنانها وحبها ، وظل شبج الأم يطارده الى أن لحق بها بعد
الخمسين من عمره .

وتجد أثر ذلك الندم الصادق فى كثير من فصول كتابه ،
وأغلب الظن أنه كان ندم الابن على ما سببه الحزن لأمه أكثر منه
ندماً على عدم الركوع فى صلاته ، وإنه لعمر ك شىء واحد ، فإن الأم
المحبة صورة الله على الأرض ، وقديماً قال رسول الله « الجنة تحت

أقدام الأمهات ، ولم تكن مثل هذه العاطفة ببعيدة عن قلب جويس .

هذان هما المأخذان اللذان أخذهما بعض المنتطعين على جويس ، مخالفة الآداب ، والتصريح بأمر يجب فى وهمهم أن تكتم عن جمهور القراء خوفاً على فضيلة الحياء ، أو حذراً من الإباحية والثورة على بعض المظاهر الجيزويتية ، التى تمت إلى الكتلكة ، لا على جوهر الدين المسيحى نفسه .

وهذان المأخذان قد فحصهما القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه بجواز طبع الكتاب ونشره وانتفاع صاحبه ببعض جهوده ، وقد ضرب القاضى الحصيف العادل باعتراض السخفاء عرض الحائط ، وقال « إن الحرية التى انتحلها جويس تفيد الآداب والفضيلة والدين ، ولا تضر بأحد من القراء ، وإن هذا الكتاب ليس موضوعاً للعداوى ولا مفروضاً على طلاب المدارس ، ولا مصنوعاً للأرامل المتعنتات أو العوانس اليانسات ، إنما هو عمل فنى جليل القدر ، خالد الأثر ، صعب المنال بعيد الغور على أوساط الناس وعلى كثير ممن هم فوق الوسط ، ومن وصل إلى درجة من الفهم حتى يملك زمامه ، ويحيط بأدبه لفظاً ومعنى وشكلاً وموضوعاً

وعرضاً وجوهراً ، ويتاح له الوقوف على أسراره ورموزه ، من يصل الى هذه الدرجة ، لا يخشى على عفته ، أو دينه أو عرضه أو شعوره أو خلقه ، من مطالعته واقتنائه ، « أى أن القاضى الأمريكى الحديث رجع الى قول الإسلام « لا حياء فى الدين » ، ولا حياء فى العلم والأدب والفن ، وأباح القاضى الأمريكى فى الثلث الأول من القرن العشرين لجيمس جويس ما أباحه الدين والعرف والفن لكبار كتاب الأدب العربى وشعرائهم فى القرنين الأول والثانى للهجرة .

إن الذى يقرأ عولس ويدركه إما أن يكون فتى وإما كهلاً ، فإن كان كهلاً فقد فات عهد الغليان والتأثر بالألفاظ والصور الذهنية وتحرر من قيود الحياة الجنسية لكثرة ما قارف من ناحيتها المكدره ، أو المضعفة أو المملة ، وإن كان فتى قادراً على فهمه ، فهو فى درجة من النضج تحميه وتقويه وتكسبه مناعة لا شك فيها .

أما النساء ، فقد أوتين بحكم غريزتهن من الإدراك والتعمق فى تلك المسألة ما لم يصل اليه رجل مهما بلغ علمه ، لأنهن أمهات العالم ، وتكفى الإشارة هنا الى أخلاق مدام ليوبولد بلوم بطل الكتاب الموصوفة بأقصى إسهاب وأعجب أسلوب فى المناجاة الذاتية من الصفحة ٦٩٤ الى آخر الكتاب فى ص ٧٢٥ ، ونعدها

أبلغ وأقوى وأبهر ما كتب فى اللغات الأوروبية قديماً وحديثاً ، فى دلالتها على النفس البشرية ولا سيما نفس المرأة ، فليرجع اليها من يشاء فى نسخه المطبوعة الصادرة سنة ١٩٣٠ بمطبعة شكسبير وشركاه ١٢ شارع أوديون بباريس أو فى مطبوعاته الحديثة فى سنوات ١٩٣٤ ، ١٩٤٢ بنيويورك .

بيد أن جويس لم يكن محروماً من الحب ، فقد تزوج فى العشرين من عمره بفتاة أحبها ، وهى التى صحبتته فى أسفاره (قرينته نورا) وولدت له ذكوراً وإناثاً وملأت بيته بهجة وحبوراً ، وسهرت على راحته وسعادته فى وسط بحر خضم من الشقاء والكفاح فى سبيل الرزق والمجد .

ولكن جويس نفسه كان بطبيعته جذاباً للجنس اللطيف ، ومحبوياً من النساء لرقته وحسن عشرته ، وكان مطموئعاً فيه منهن ، سواء أكرن عذارى أو ثيبات ناضجات ، يعجبن بشخصه وبمرحه وحضور بديهته وبفنه ، وإن كان معظمهن لا يدركن كل ما يكتب أو يقول ، ومنهن من سارعن الى نجدته بالمال والنوال فى منفاه ، وهو أحوج ما يكون للعون ، وفى مقدمتهن « إيدا روكفلر » من أسرة صاحب الملايين الأمريكى الشهير ، ثم ميس واينر صاحبة مجلة

«ايجويست» أمدته بالمال وشجعته على نشر فصول من كتابه فى مجلتها ، وتحملت أذى المحاكمة والمصادرة والغرم والخسران فى سبيل إذاعة أدبه ونشره ، ومنهن من أضفن حب الهوى الى الإعجاب ، وجمعن بين الافتتان به ، وبين التشيع له ، والدعاية باسمه والإشادة بقدرته ومواهبه ، مثل جيرتى ، ومسز كورفيك التى طبعت كتاب عولس على نفقتها فى باريس ، وهى لاترجو من ورائه ربحاً بل تتوقع ضياع المال ، وإتلاف النسخ المصادرة حرقاً أو غرقاً أو تمزيقاً .

وجاءه الحب النسوى طائراً على أجنحة كأجنحة القطا من امريكا عبر المحيط تحمله قلوب فتيات شهيرات بالجمال والأدب ورفعة النسب ، ميس اندروس ، وميس هيب وميس إثيل هارب فقد أحببته على البعد ، وهمن به هياماً شديداً ، وتكبدن مشقات السفر اليه حتى اجتمعن به ، وأنسن بلقائه ، وهن يعلمن أنه زوج امرأة جميلة ورب أسرة كبيرة .

ولا يمكن أن يخلو هذا السرب من ربات الجمال والحجال والأدب الرفيع ، والمال الوفير ، والنسب العالى من واحدة أو أكثر من نوات الحياء والخفر والاستمساك بالفضيلة ، كانت تثور على

جويس أو تنفر منه أو تعرض عنه ، أو تكتم هواها لو أنها رأت أو شعرت أو ظنّت أن كتاب عواس يهتك أستار الفضيلة ، أو يخدش أذهان العذارى أو يعدى القارئ بقاء من أنواء الرذيلة أو النقص الخلقى ، أو يعرضهن لسوء الظن .

وقد كان الرأى العام الأمريكى فى صفة قبل أن يصدر الحكم فى مصلحته ، ولذا خسرت جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة (؟!) قضيتها التى رفعتها عليه خسارة مجلة فرح لها كل الأدباء فى القارتين ، وأعادت الى ذاكرة النقاد القضية التى رفعتها النيابة العامة على جوستاف فلوبيير عقيب نشر كتابه العظيم « مدام بوفارى » بتهمة أنه خدش الحياء وأساء الى نظام الأسرة ورباط الزوجية المقدس ، بوصف الحب المكشوف فى حياة زوجة صيدلى تهتكت فى عشق شاب من الأعيان ، فأصدرت محكمة باريس العليا حكمها بالتبرئة والتهنئة ، وأثبتت النيابة العامة على قلة فهمها وعدوانها على كرامة الأديب الكبير ، « أنظر نص الحكم فى آخر كتاب مدام بوفارى » .

فما أحوج المجتمع الحديث الى قاض عادل جرىء يخزى شياطين هؤلاء الأذعياء المفرضين المنافقين والمتظاهرين بالتمسك

بالفضيلة ، وهم يخمعون ويظلمون خلق القدماء فى النود عن الخلال
المصطنعة كالجَمال العُرْج ، ولم تكن جمعية أنصار الدفاع عن
الفضيلة سوى جماعة مزيفة من هذا النوع ومن الجمال الجرب التى
ترمى الفضلاء بدائها .

ونختم هذه النبذة فى الدفاع عن جويس بالكلمة الحكيمة
القائلة « كل شىء يعد ظاهراً أو دنساً ، لا بحسب نصه أو لفظه أو
معناه ، ولكن بحسب الأذن التى تسمعه ، والذهن الذى يعيه ، فكل
معنى يحسب ظاهراً نظيفاً للذهن الطاهر النظيف وعلى نقيض ذلك
للذهن الملوث القذر » .